عذراً..لم أعد طفلاً!

عندما ذهبت الي غرفة أخي الأصغر ذي الأثني عشر عاماً ـ حيث أكبره بعشرة أعوام ــ لمنادته لطعام الغداء، حين شرعت في فتح باب غرفته، وجدته في حركة سريعة منه أغلق هاتفه ووضعة بجانبة، وعندما سألته عما كان يفعل، أفتعل حديثا جانبياً للهرب من أجابة السؤال..

تغاضيت عن الأمر معللة لنفسي أن الموقف لا يحتاج الإطالة فيه أكثر من ذلك فهو في النهاية طفل، فماذا يمكن أن يفعل طفل بالهاتف سوي قضاء الوقت في لعب الألعاب الألكترونية مثلا!؟

لكن في مره لاحقة نسي هاتفه علي المنضدة عند ذهابة لقضاء شيئا ما، في تلك اللحظة ظهرت رسالة علي شاشة الهاتف، وكانت من أحد أصدقائة يخبره أنه سينشر فيديو علي"جروب الماسينجر" الخاص بهم، والذي سيستحوذ علي أعجابهم كثيرا هذه المرة، وهو في أنتظار أن يتجمع الأصدقاء كلهم علي "الجروب"..

أثارت تلك الرسالة فضولي، حيث أردت أن أري الفديوهات التي يتداولها أطفال فيما بينهم، محدثة نفسي بسخرية عن ماذا قد تكون هذه المواضيع التي يتناقش فيها أطفال!؟

أخذت الهاتف لأري مغزي هذه الرسالة، وجدت أن الهاتف محمي بكلمة سر طويلة ومعقدة، بالطبع لم أستطع حل كلمة السر، وعند مجيئه، سألته عن "جروب الماسينجر" هذا وعن أصدقائة وما هي الفديوهات التي ينشروها فيما بينهم، صاح بي معلناً عن غضبة الشديد لأمساكي بهاتفه، مشيراً بغضب الي أنه لم يعد طفلاً لكي أستجوبه هكذا، بالأضافة الي أنني لا أملك الحق في أن أقتحم خصوصياته!!

ــ أي خصوصيات التي يمتلكها طفل!! ــ طلبت منه بكل جدية وبدون مقدمات أن يحل كلمة السر ويفتح هاتفه، لكنه رفض بشده وظل مصراً علي عدم أعطائه لي...

بعد شجار دام لدقائق طوال، شرحت له جيدا كيف سأكون أفضل شخص يخبره ما يحدث، وان لم يفعل ، فسأقول بكل بساطة لأبوانا، وهذا لن يكون خياراً جيداً لأحد، مشيرة الي أنه سيكون في مأزق حال إخبار والدينا، فهما لايتفاهمان سوي بالضرب المبرح والإهانات التي لا يتحملها بشر، لذلك سأكون أنا أكثر الأختيارات هوناً بالنسبة له!!

شرع في البكاء مقسماً أنه لن يكرر ما يفعله مجدداً وأنها ستكون المرة الأخيرة، ظننت أن الموضوع علي الأكثر سيكون حول فتاة معجب بها ويتكلمون حولها ولا يريدني أن أعلم بشأنها علي سبيل المثال، لذلك أعطيته وعداً أنني لن أخبر أحداً بالأخص أبوينا...

بعد تردد، حل كلمة السر وأعطاني الهاتف، فتحت "الماسينجر" الذي أُرسلت عبره الرسائل، وصرت أقلب في الرسائل والصور والفديوهات المُرسلة حتي جحظت عيناي وعُقد لساني من هول ما رأيت!!

بدون أن أشعر،وجدت نفسي أبرحة ضرباً عنيفاً مع صراخي الشديد عليه المشوب بالسؤال عن السبب وراء فعلته هذه، وما كان من أخي إلا أن ظل ساكنا في مكانه يبكي متوسلاً حتي لا أخبر والدينا..

أستفزني ما شاهدته من رسائل وصور وفيديوهات علي هذا "الجروب" اللعين، فلم أتوقع ما يمكن أن يفعله أطفال في مثل عمرهم، حيث وجدت صوراً تم تصويرها لسيدات في بيوتهن وعندما شرعت في قرائة الرسائل المرسلة من قبل أصدقائه وجدت أن تلك الصور تنتمي لأمهاتهم، ويتسابقون فيما بينهم لشرح تفاصيل الملابس التي ترتديها أمهاتهم وما تكشفه تلك الملابس من أجسادهن، وكيف أنهم يراقبونهم وهن نائمات ليلاً، وبالطبع فعل أخي ما فعلوه لينال ثقتهم فيه، لتتصاعد بعد ذلك وتيرة المحتوي الذي يتداولوه فيما بينهم، حيث شاركوا مقاطع من الفيديوهات مأخوذة من الأفلام المتدنية التي تحتوي علي الكثيرمن الإيحائات الجنسية الفجة ويكون فيها الطفل أوالمراهق هو البطل، لتأتي توصيات من بعض أصدقاءه لمشاهدة الفديوهات الساخرة ذات الطابع الجنسي علي اليوتيوب، هذا وبالإضافة الي المناقشات التي كانت تدور بينهم والتي تنأي تماماً عن معني الطفولة!!

فيما بعد عندما سألته عن كل ذلك، قال لي أن الأمر بدأ كمجرد مزحة ولكن تحول فيما بعد الي أهتمامات وأسرار يتشاركها الأصدقاء معاً للتقارب أكثر،وعندما سألته عن سبب مرافقته لهم برر وجوده وسط هؤلاء الأولاد، معللاً انهم الوحيدين التي كانت معاملتهم جيدة له علي عكس الآخريين، لذلك أصبح رفيق لهم...

لا أعرف يقيناً ما الموقف الواجب أتخاذة معه، ولكني علي علم تام أني إذا أخبرت والدينا فسأفقد ثقة أخي فيَّ من جهة، ومن جهة أخري لن يتعامل والداي بحكمة معه، فمبدأهم في التعامل هو القسوة والعنف، بل وانهم إذا علموا، لن يتاونوا دقيقة واحدة لتذكير أخي بفعلته وسيصاحب ذلك الكثير من الكلمات الجارحة والمهينة، لذلك كل ما أستطعت فعله هو أن آخذ وعد منه ألا يفعل ذلك مجدداً وأن يبتعد عن هؤلاء الأولاد، خاصة أنني لا أمكث كثيراً بالمنزل بسبب عملي، لذلك لا أستطيع مراقبته بشكل مستمر، فأزداد قلقاً وخوفاً عليه من أن يظل متمسكاً بطريقه الذي أختاره من البداية!!

العالم المفتوح الغير مقيد الذي نعيش فيه الآن وبدون رقابة ، شرع في جعل الطفل صاحب تفكير وأهتمامات تفوق سنه، فأصبح لا يملك من تلك الكلمة سوي أسمها، مع ذلك يحتفظ الأباء بطرقهم التقليدية في معاملة وتربية أبنائهم الذين يفوقونهم تفكيراً بمراحل نظراً للتطور التكنولوجي الهائل الذي يحدث يومياً...

وعندما يكون العنف والقسوة هما أساس التربية فمن الطبيعي أن نجد مثل تلك الحالات في المجتمع، ــ فالعنف الأسري لا يولد عالماً نبيلاً ــ بالتالي سيلجأ الطفل الي مواقع التواصل الأجتماعي ليجد فيها ضالته من الأهتمام والعطف من الأخريين حتي وأن كانت علي شبكات أفتراضية، ومع عدم المراقبه المستمرة لما يتعرض له الأطفال فنحن بصدد خلق أطفال وأشخاص مضطربين ومشوهين نفسياً، بل أحياناً يصل الأمر الي خلق أطفال وشباب يدمن الجنس من خلال الأنترنت بسبب الجهل وعدم الوعي من التطورات التي تحدث حولنا!!

لذلك من المهم خلق الرقابة الذاتية في الأبناء وهم في سن مبكره، وغرس النزعة الدينة لديهم ليكون ذلك الحصن الذي سيحميهم من الوقوع في الأخطاء والدواء الذي سيلجأون اليه عندما يقتربون من أقتراف أي فعل منافي للأخلاق في حق نفسهم وفي حق الآخرين.